علماء العرب

١٣

ابن ماجد

أعظم ربابنة البحار العرب فى القرن الميلادى الخامس عشر ، جاب بسفنه بحار المحيط الهندى طوال ستين عاماً ، ووطئت قدماه سواحل وموانى الصين والهند واندونيسيا والخليج العربي والساحل الافريقى الشرقى والبحر الأحمر. واستخدم لأول مرة البوصلة فى الملاحة البحرية.

واكتشف "علم البحر" لأول مرة.
وألّف فيه أكثر من ثلاثين كتاباً.
وقاد مرغماً فاسكو دى جاما إلى الهند. إنها قصة تثير الفخار، يقرؤها الصغار والكبار.

صدر من هذه السلسلة :

١ – ابن النفيس
٢ – ابن الهيثم
٣ – البيرونى
٤ – جابر بن حيان
٥ – ابن البيطار
٦ – ابن بطوطة
٧ – ابن سينا
٨ – الفارابى
٩ – الخوارزمى
١٠ – الإدريسى
١١ – الدميرى
١٢ – ابن رشد
١٣ – ابن ماجد

مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام

التوزيع فى الداخل والخارج : وكالة الأهرام للتوزيع
ش الجلاء – القاهرة

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر

علماء العرب

١٣

ابن ماجد

أسد البحار

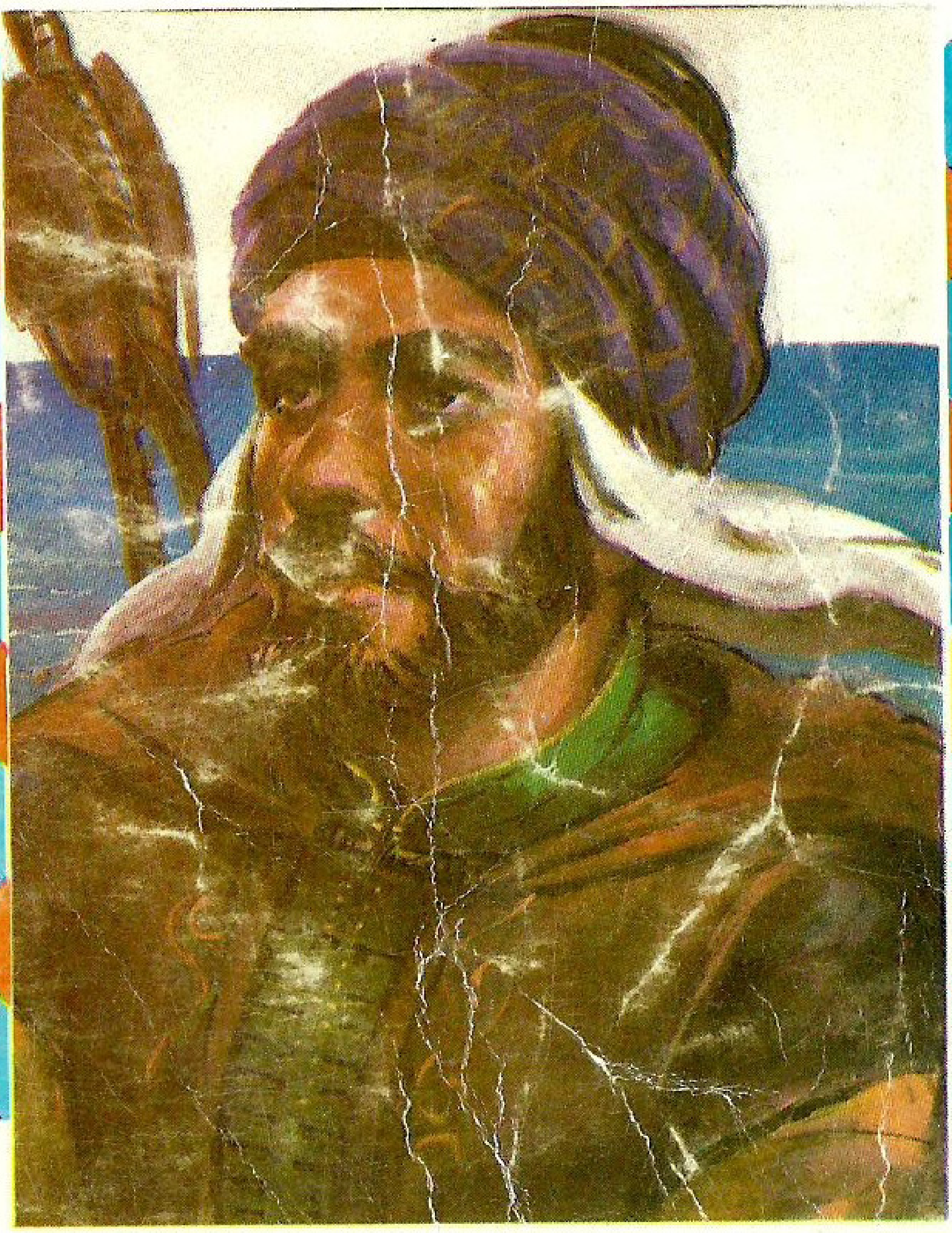

تأليف : سليمان فياض

رسوم : اسماعيل دياب

الأهرام
مركز الأهرام
للترجمة والنشر

علماء
العرب

(١٣)

ابن ماجد

أسد البحار

عبد الهادي الحبشي

سليمان فياض

الطبعة الأولى
١٤١٠ هـ ـ ١٩٨٩م

الطبعة الثانية
١٤١٢ هـ ١٩٩٢ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

الناشر : مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام ـ شارع الجلاء القاهرة
تليفون : ٧٤٨٢٤٨ ـ تلكس ٩٢٠٠٢ يوان

ابن البحّار

كانت الليلةُ من ليالى الصّيف . وكان « أحمد » مايزالُ صبِيا فى العاشرة ، حين قال لأبِيه « ماجد » :

ـ خذنِي معَك إلى البحر .

نظر ماجد إلَى أم أحمد مستفسراً عن رأيِها . فقالت :

ـ اليومَ أو غدا ، ستأخذُه معَك إلى البحر . ولاحيلةَ لى . فقد تزوجتُ بحّاراً ، ابنَ بحّار .

وضحِك ماجد وقال ، وهو ينظرُ إلى ولدِه أحمد :

ـ سيكونُ أحمدُ بحّاراً عظيما ، وحفيداً لبحّارٍ عظِيم .

كانت الأسرةُ جالسة فى ساحة دارٍ صغيرَة ، فى بلدَة « جُلفار » (رأس الخيمة الآن بدولةِ الإمارات) ، وماتزالُ أمامَها بقايَا العَشاء ، من الفواكِه والأسْماك . وكانت النجومُ تُومِضَ فى سماءٍ دانية ، وحدّق ماجد طويلاً فى نجمِ الجاه (النجمُ القطبِّى الشمالّى) . وقال ماجد لوالدِه وزوجتِه :

ـ هذا النجمُ صديقُ النّوتية (الملّاحين) فى كلِّ البحار .

ونام أحمد ليلته إلى جانِب أبيه فى ساحةِ الدّار . وعندَ الفجرِ صحا مع أبيه ، وتوجها معًا لصلاةِ الفجر فى مسجِد « جُلفار » ، مع النوتيّةِ ، والصيّادين ، وصُنّاع السفُنِ الكبيرة ، والزوارِق الصغيرةِ . وقبلَ أن يدخُل ماجدٌ المسجد ، أشارَ لولدِه ، عبر مياهِ الخليج التى يتصاعدُ بخارُها ، وقال :

ـ هناك ، وراءَ هذهِ المياه ، إلى جهةِ الشمالِ قليلا ،

سوف ترى يوماً ميناءَ سيراف ، على الشاطىء الفارسِىّ .

وحلم أحمد بأن يَرى ماوراءَ البِحار ، من الموانىِ والشُّطآن .

ربّان البرّيْن

كان « ماجد » هو كبيرُ المعالمة (الربابنة) العربِ فى زمانِه ، فى كلّ موانى الخليجِ العربّى ، والبحرِ الأحمر ، والمحيطِ الهندىّ ، والبحرِ العربّى ، على سواحِلِ جزيرةِ العرب ، والساحِلِ الشرقِى لإفريقيا من مصرَ ، إلى السودانِ ، والصومالِ ، وكينيا ، وتانزانيَا ، ومُوزمبِيق ، والساحِل الفارسى ، وسواحِل الهند ، وسواحِل جزُر المحيطِ ، من جزيرة القمرِ (مدغشقر) إلى جُزرِ المالَدِيف ، وجاوَه ، وسُومَطرة . فمنحه النوتيّةُ (البحارة) والمعالمة (الربابنة) لقَب « ربانِ البّرين » : برّ العرب ، وبرّ العجم . وكانَ ماجدٌ قد نظَم أرجوزَة شعريةً فى ألْفِ بْيت ، وصَف فيها الملاحَةَ فى البحرِ الأحْمر ، وحفظها ولدُه أحمدُ عن ظهرِ قلب .

كانتِ السنةُ التى أبحرَ فيها ماجد بولده أحمد ، هى عامُ ألفٍ وأربعمائةٍ وأربعةٍ وأربعينٍ ميلادية . ولوّحت أمه مع الملوّحين بأيديهم مودّعين ، وأخذت سفينة أبيه تُقلع من الميناء وظلّ أحمدُ يرى أمّه ، وهي تنظرُ نحوه باسمة ، إلى أنْ توارتْ أمامَه فى المَدى مع الناسِ والميناء ، وراءَ ضبابِ الصباح ، وكفَّ منادِى البحارة عَن إبلاغِ أوامرِ أبيهِ بالصياح ، إلى صاحب السُّكان (الدفّة) وإلى بحارة القُلوعِ على الصّوارِى . وسمعَ ماجدٌ صوتَ أبيه يتمتمُ قائِلاً :

« بسمِ اللهِ مَجرِيها ومُرساها »

ورأَى أباه يُصلِّى ركعتيْن لله ، فهوَ ومنْ معَه فى البحْر ، ضيُوفُ الرحمن . وكانتِ السفينةُ تعبُر مضيقًا بالخليج ، يحتاجُ عبورُه بين الصّخُور ، والمجازِ الضيق ، إلى مهارة ، وماجدٌ يلازِم صاحبَ الدفّة ، يوجِّهه يُمنةً ويُسرةً ، حتى خرجتِ السفينةُ بهِم إلى البحرِ العربىّ الفسيح (مابين عُمان والساحِلِ الهندِىّ) .

وأشارَ ماجدُ لولدِه قائلاً :

ـ اذهبْ وتفرّج علَى السفينةِ ، ومن عليْها من البحارةِ ، والمسافِرين ، وسلْهم عن أىّ شيءٍ ، فسوفَ يجيبونَك . فالناسُ فى البحرِ ، غيْرهم على البرّ ، يُصبِحون إخوةً وأصدقاء .

قاليقـوط

كانتِ السفينةُ تسيرُ فى ريح رُخاء (طيبة) مع تيارِ المحِيط ، مُتجهةً إلى « رأسِ هيلى » و « قاليقـوط » (كلكتالآن) ، على ساحِلِ المليبَار الهندِىّ . تدفعها رياح « الدبُور » .

فى ذلِك النهار ، أخذ « أحمد » يرقُبُ أسماكَ البحرِ الكبيرةِ والصغيرَة ، وهى تقفِزُ وتغُوص ، كأنها فرِحَةٌ بالبحْر وبدفْءِ الشمس ، وزُرقَةِ السماء ، وأصواتِ الأمْواجِ الهادِئة ، والمسافِرين . وعلى رأسِه كانت عمامةٌ صغيرة لربّان صغِير ، وعلى وسطِهِ كان زنّار عرِيض (حزام) ، يحيطُ بخِصْره ، مثل البحارَةِ الكِبار .

الدخول إلى المرسى

اقتربَ ساحلُ المليبار . بدَا لعينىْ أحمد ، فى الأفق البعيد ، وأسرابُ الطير تُروح رائحةً غادية ، بين السّفن الراسية فى عَرْضِ البحْر ، القادمةِ من الصين ، والقادمةِ من جزرِ المالديف ، واندونيْسيا ، وساحِلِ الزّنْج الإفريقى . وكانَ الوقتُ عصراً ، حين أمَر ماجدٌ مساعدِيه ، فنادَى المنادِى بطىِّ القلاع ، وإنزالِ البَلَد (الهِلْب) فى أعماقِ البحر . وقالَ أحمدُ لأبِيه :

ـ المرسَى أمامَنا فى الأفق البعيد ، سنبلغُه قبْلَ الغروب .

فقال ماجِد لولده :

ـ ألا ترَى الراياتِ السوداءَ مرفوعةً فوقَ السّفنِ الراسيةِ من حولنا ؟ الأمواجُ هائجةٌ عندَ الشاطىء يابُنىّ ، وفى الدّخول إلى المرسَى ، مع اللّيل ، خطرٌ شديد ، فهناكَ دائماً صخورٌ على جوانِبِ مرسَى السّفُن .

معَ الصباح ، كانتِ الأمواجُ العالية قد هدأَتْ ، وسطح الماءِ صارَ خفِيفَ الموْج ، يتناوبُ سطحه بالوميض فى ضياءِ الشّمس . وبدأتِ السّفُن فى رفعِ بِلادِها (أهْلاَبِها) من أعماقِ البحَر ، والدخولِ واحدةً إثْرَ واحدة إلى ميناءِ قالِيقوط ، على ساحِلِ المِلِيبَار الهِندىّ .

صعِد رجالُ النوْل (الجمَارك) إلى سطْحِ سفينَةِ أبيه ، وفحصُوا البضائِعَ وأوراقَ المسافِرين ، وحصّلَوا النوْلَ (الجمرك) من أبِيه ومنَ المسافِرين ، من التّجارِ والمتصوّفة والسائِحين ، والباحثِين عن حياة جديدةٍ ، فى بلادٍ جديدةٍ ، طلباً للرزْق .

ودَهِش ماجِد حين رأَى أباه يتحدّث إلى رِجَال النّوْل من الهنودِ بالسنسكريتية ، كأنهُ واحِدُ من أبنائِها . ونزَل مع أبيه ومساعِديه إلى الساحِل ، حمَلهم إليه قارب ، تتبعُه قوارِب

أخرى ، تحمل بعض النوتية ، ونزلُوا فى خانٍ (فندق صغير) بالمدينَة ، ثم صحِبه أبُوه إلى السوق ليرَى الناس ، ويشترِى مايشاءُ ، من ثيابٍ وحلوى . وفى كلّ مكان ، كانَ الناس يعرفُون أباه ، يحيّونه بطريقِتهم ، ويحيّيهم بطريقتهم ذاتِها ، ضامًّا كفّيْه إلى صدره ، منحنياً بعضَ الانحناء . وقالَ ماجدٌ لولدِه :

ـ فى كلّ ميناء تنزلُه يابنى . افْعلْ مثلَما يفعلُ أهلُه . وتعلّم لغتهم ، لتأمَنَ الشّر ، وسوءَ الفَهْم . وكُلْ معهم من طعامِهم ، وامدحْ لهم بَلَدهم ، واسلُك مثلَ سُلوكهم ، فيأمَنوا لكَ ويألَفُوك ، وتأمَنُ لهُمْ ، وتأنَسُ بهم .

عرائس البحر

وباتَ أحمدُ ليلتَه فى غرفَةٍ مع أبيه بالخان ، يسمعُ طَوال اللّيل أصواتَ الأمْوَاج ، وقد ضاعَفها المدُّ القمرىّ ، ويرَى ، عبْرَ النافذَة ، البحرَ والأرض ، وقد صاراً بِساطًا واحداً ، لاتفصِلُهما سوَى أمواجٌ عالِية ، تومِضُ فى ضَوْء القمر .

وفزِع أحمدُ إذْ رأَى ، فى البعيدِ ، كائناتٍ تخرُجُ من

البحْرَ ، وتتحرّكُ على الشاطِىء لاهيةً لاعِبةً ، تبدُو ذواتِ رءُوسٍ وقاماتٍ مثلَ البشر . وقالَ له أبوْه :

– هذِه هىَ يابُنى عرائسُ البحْر ، التى ينسج البحارَة والمسافِرونَ والقصّاصونَ حولَها الحكاياتِ والأساطِير ، ويُؤَلِّفونَ عنها قِصَصاً للحب بينَها وبيْنَ البشر ، يُبهِرُون بها الناس . لكنّنى اقتربْتُ منها ذاتَ ليلة ، وحقّقتها بنفسى ، نصفُها الأسفل ذيلُ سمكة ، وليسَ لها ساقانِ ، ولهاَ رأسٌ ضئيل ، ووجْهٌ قبيح ، وعنُقٌ قصِير ، وزعنفَتانِ قصِيرتان ، تبدُوَان لكَ من بعيدٍ مثل يدين . عجَائب البحرِ يابنى ، دونَها عجائِبُ البر . البحرُ يابُنىّ عالَمٌ حافِلٌ بالأسْرارِ المجهولة ، التى لم نعرِف بَعْدُ عنها الكثير .

ريح الصَّبا

انتظَرَ أحمدُ مع أبيه ماجدٍ قُرابة شهريْن فى المِيناء . ورأى أحمدُ أباه ، يرفَع عصًا قصِيرةً بيدِه ، وفى أعْلاهَا قطعةُ قماشٍ صغيرة كالعَلَم ، وفى الحال راحتِ القماشَةُ تخفُق فى اتجاهِ الريح صوْبَ الخليج . وكانتِ السماءُ ملبّدة بسحُب خفيفَة . وسمِع أَباه يقُول :

– الآن ، انفتحَ لنَا غلْق البَحْر (طريقُ المجْرَى) للعوْدة ، فقدْ هبَّت رِيحُ الصَّبا ، لتحمِلَنا رُخاء ، بأمْرِ الله ، إلَى جُلفار .

مع ريح الدبور غادرَت سفينةُ ماجدُ جُلفار ، وهاهِى تعودُ مع ريح الصّبا إليه ، ويسمَع أحمدُ أباه يقولُ لمعاونِيه :

– فلْنُبحِرْ عائِدين بمشيئَة الله .

فى الحَال ، توالَتْ نداءَاتُ المنادِى ، فَعَلاَ الرجالُ الصوارِىَ ، وانفردَت فى أعالِيها القُلُوع ، واستدارَت السفينةُ لتغادِر ميناءَ قاليقوط ، وساحِل المليبار ، محمّلةً بتجار عائِدِين ، ومسافِرينَ جُددا ، وبضائِعَ جديدة ، من الهندِ ، والصين ، والجزائرِ الجنوبيةِ للِهند .

أسـفارٌ ولغـات

وتعددت أسفار أحمد مع أبيه ماجد ، عبْر السنين ، بين سَواحِل قارتين وجزائرِ البِحَار وموانيها ، وسواحل افريقية ، فى سُفالة ، وبرِّ الزّنج ، والهِيراب ، والصومَال ، وسواحِل شبْهِ الجزيرة العربية ، والجُوزرَات ، وفارس ، والملِيبار ، والملايو ،

واندونيسْيا ، وجزرُ سُقُطْرى ، ومدغشقر (كانت تسمى جزيرة القمر) والمالَديف ، واللكادِيف ، وخورْيا مورْيا ، وكومُورو (تسمى حاليا جزر القمر وهى فى المحيط الهندى) وهنْدُرابى ، والبحرين ، وسرنديب ، ونيكُوبار ، وسُومَطره ، وسِيام ، وجاوَه ، وجُزرِ الساحلِ الافريقى ، وبحَارُ القَلْزم (البحر الأحمر) ، وبحر الهند ، وبحرِ الخليج العربى ، وموانى وثغور فى شتى السواحل والجزر والشطآن ، تجاوزُ عدّتُها خمسةً وأربعينَ ميناءً .

وعَرف أحمد من أبيه ماجد ، أسماءَ النجومِ ومجاميعَها الملاحِيّة ، فهى صديقة البحّارةِ فى البِحار ، وعرف مواقِعَها فى السماء ، جنوبىّ خطّ الاستواء ، وشمالِى خطّ الاستواء ، ومواقيتَ أفُولِها وغروبِها فى ساعاتٍ بعينها من الليل ، ومتى يستفِيدُ الرّبان فى مجرَى الإبحار ، من هذا النّجمِ أوْ ذاك ، ليصحّح اتجاه الدفّة والقِلاع . وحفِظَ لها أحمدُ أسماءَ أكثر من أربعينَ نجماً .

وحين تكونُ سماءُ الليلُ شديدةَ الظلام ، كثيفَةَ السُّحُب السوْداء ، كان أحمد يرَى أباه ، يُوقِف السفِينة ، ويُنزِلُ الهلب ،

ويطوى الشّراع ، فلا شَمْس فى السّماء ، ولانُجومَ تُرى فى الفَضاء ، يحدّدُ بها الاتّجاه . وقد يتكررُ وقوفُ السفينةِ عن الحَركة ، ليلةً إثرَ ليلة ، وربّما نهاراً إثرَ نهار ، فى فصلِ الشتاء .

وسَفْرَةً بعدَ سَفْرة ، تعلّم أحمدُ من أبيه ، كيفَ يُداوى على ظهرِ السّفينة من يصيبُه مرض من أمراض الجسدْ بالأعشاب ، وكيف يصبّر ويُضحِك من يشتدُّ به الحنين فى أسفاره ، للأهلِ وللشُّطآن ، أو يُسنِدُ إليه عملاً بالسّفينة ، يشغله به عن الحنِين ، أو يُشرِكُه فى حياةٍ جَماعيّةٍ مع المسافرين ، وكيفَ يعرِفُ مواقِيتَ الصلاة فى البحرِ ، وفنون تجاوُزِ الدوّاماتِ والنوافيرِ البحريّة ، والعواصِفِ والأنْواء .

وأفاد أحمدُ الكثيرَ من أبيه ومن الأسْفارِ والمسافرين ، والأصدقاءِ فى الموانىِ والثّغور ، فعَرف كيفَ يتحدّث ، معَ لغتِه العربيّة ، باللغاتِ السّنْسكريتية ، والجاويّة ، والسواحِلية ، والفارسِية ، خلالَ سبعِ سنوات ، منذُ إبحاره مع أبيه لأول مرة .

ضيوف الرحمن

كان أحمدُ قد بلَغَ من العُمرِ سبْعَ عشرةَ سَنة ، وصارَ فتى جمّ النّشَاط صحيحَ البِنية ، متوقّد الذّهن ، لَوّحَ هواءُ البحرِ وجْهَهُ بسمْرةٍ شدِيدة ، وجعلتْ آمادُ البحرِ الفسِيحة عينيْه ذاتَ بريقٍ شَدِيد . وعلمَته مسئولِيّاتُه على ظهرِ السفِينة ، كيفَ يعيشُ فى بَساطة ، متفرّغا لعمِله ، وكيفَ يكوُن عفِيفَ النّفس ، زاهداً فى المال ، حرِيصا على نظافَةِ السّفينة ، حِرْصَهُ على النظافةِ فى جسدِه ، والطهارَةِ فى قلبه ونفسِه . وكان يقُولُ أبداً لمن حولَه على ظهرِ السّفِينة :

ـ نحنُ فى البحرِ ضيوفُ الرحْمن ، ولايُضيِّع مُضِيفٌ ضيوفَه .

وأجلسَ ماجدٌ ولدَه أحمد ، وقالَ له :

ـ كبِرْت يابنى ، وخبرت البحرَ والبِلاد . وقد آنَ لِى أنْ أعهدَ إليْك بالمشاركةِ فى توجيه الدّفّة ، وهى أهمّ جزءٍ فى المركب ، وسوفَ أرقب ماتفعلُه بها فى الليلِ وفى النهار . فالمركبُ بدونِ توجِيه صحيحٍ لدفّتها فى شتّى المواقِفِ فى البحْر ،

ضائعةٌ هى ومَن عليْها ، بالتّيه فى ضباب البحار العمِيقَة ، أو بالغرَقِ حين تعلُو الأمواَج ، أو حينَ تدخُل السّفِينةُ بين الصخور والدوّامات .

ولم يخفْ أحمدُ فرحتَه ، لكنهّ قال :

ــ ومتى تعلّمُنى القياساتِ الملاحِيةّ البحرِية .

فضحك أبوه ، وقال :

ــ فى اليومِ الذى تُصبحُ فيه خبيراً بالدّفة ، خِبْرتَك بسائِر أعمالِ البَحّارةِ الأخرى ، سأعلّمك القياسَاتِ الملاحيةِ البحرِيّة ، بالأدواتِ الفلكِية ، للأبعادِ والارتفاعاتِ ، وخطوطِ الطولِ والعرْض . وقد لايحدُث ذلكِ الدرسُ يابُنىَّ قبلَ عشرِ سَنَوات .

أســد البحــر

وبلغَ أحمدُ من العُمر سبعاً وعشرينَ سنة ، وهو يسْيطُر على دفّة السفينة بمهارَة ، ويتعلّم الكثير من أبِيه عن أدواتِ القياساتِ البحريّة الملاحِيّةِ الفلكية ، وطُرق استخدَامِها ، وفى مقدّمتِها آلةُ « الاسطرلاب » (آلةٌ لقياسِ زاويةِ ارتفاعِ الأجرامِ

فوْقَ الأفق) وأجزِائها ، وعن الزّام (وحدة لقياسِ المسافاتِ الفسيحةِ فى البحر) ، وعن الرهمانج (المرشِدُ الملاحِىّ للربان) ، وعنِ الكَمَال (آلةُ لقياسِ ارتفاعِ النجم على زاوية الرّصْد) . وذاتَ ليلة قالَ لهُ أبوُه :

ــ الآنَ يابنى . صِرتَ معلّما (ربّانا) من معالمِةِ البحار ، وسأُسْنِد إليك مهمةً بحرية ، تتقّطعُ دونَها رقابُ النوتيّة . مع الصّباح ستكوُن نائِبى فى قيادة هذِه السفينة . ستظلّ فى هذه المرتبة بضعَ سنين . وحين أطمئِن إلى دوْرك فى قيادةِ السفِينة ، وفى كُلّ البحار ، سأنزِل لك عن دورِى كربان ، وسأظَلّ معَك فى كُلّ أسفارك ، أُشيرُ عليك بيَن الحِين والحِين . فلا أُحِبّ ، إذا وافانى أجلِى ، أنْ أكونَ بعيداً عنْك فى برٍّ أو بحر .

وكانَ أحمد قد انتهَى من تأليِف أرجوزَةٍ شعرية ، عنوانُها : « حاوية الاختصارِ فى أُصُولِ عِلْم البِحار » . وضحِك منه أبوه ، وهو يقرأُ تحتَ العنوان ، بخط ولده : « تصنِيفُ أسدُ البحرِ الزخّار : شهاب الدينُ أحمدُ بن ماجد ... بن أبى الركايب السعْدِى » . وقالَ له باستنكار :

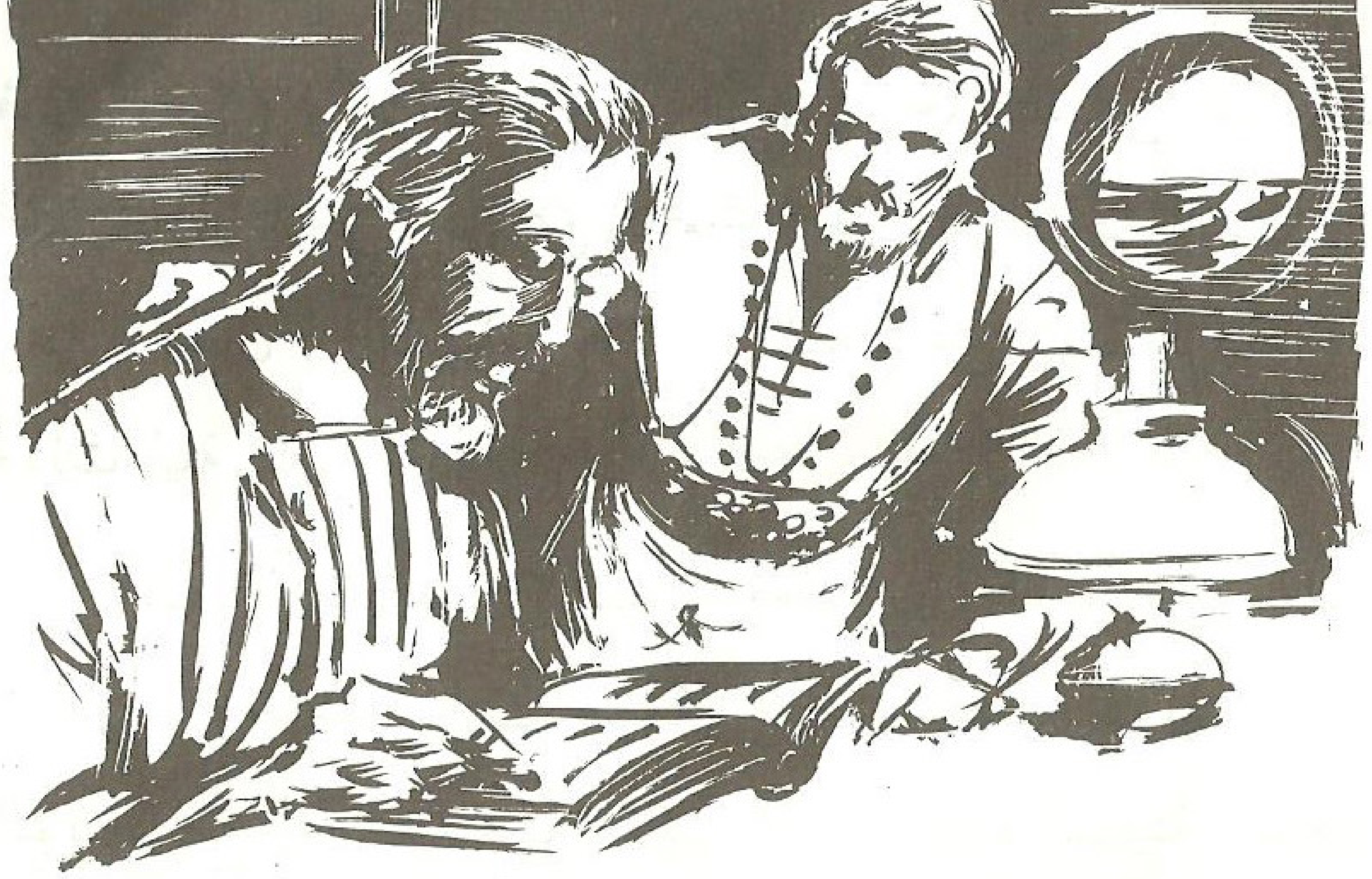

ـ أسدُ البحرِ الزَّخار ؟ والمعلّم ؟ أتمدَحُ نفسك ، وتتعجّل الرّتبة ؟

لكن ماجداً ، فى ذلِك النهار ، احتفَل على ظهْرِ السّفينة ، بتنصيبِ ابنِه ربّانا لها ، فقادَها لأولِ مرةٍ فى الأسفار ، ينامُ ساعاتٍ من النهار ، ويظلّ ليلَهُ ساهرا بجانِبِ صاحبِ السّكان ، يحدّثه ، ويقيسُ ارتفاعاتِ النّجوم ، ويوجّه حركةَ الدفة من حينٍ إلى حِين ، ويباشِرُ أحوالَ المرْضى والأصحّاء ، والنّساء والأطفال ، لايكفّ عن الحركِة هنَا وهناك ، ثم يعودُ للجُلوس معَ صاحبِ الدّفّة ، وأبوه يرقُبُ حركتَه وسكونَه ، سعيداً وراضِياً .

طريق إلى الصين

وبلغَ أحمدُ بن ماجد من العمرِ ثلاثين سنة ، وَصَارَ ربانًا ماهراً لِسفينة أبِيه ، وصارتْ تتبُعه سفُنٌ أُخرَى ، لأصحابِ سفنٍ آخرين ، وربابِنة سواه ، ثقةً بقيادته الماهرة ، وخبرتِه بالبحار .

وفى أحد أسفار أحمد إلى الملايو ، جاءتْه رحلةُ خطيرة ، اهتزّلها قلبُه ، وكانَ أبُوه مايزال معه على ظهر سفينته . كانتْ رحلةً بحريةً عبْرَ مُنعطفات الجزُر حول الفلبِّين ، إلى بحرِ الصين ، وموانِى الصّين . ولاذَ أحمدُ لفورِه بأبيه ، مستنجداً بمشورتِه ، راجياً ألا يحرِمَه من هذِه الرحلة ، ليزيدَ خبرةً بالبحر ، فى بحرِ الصين الهائج معظم العام ، الشديدِ العواصِف والأنْواء ، ويرَى موانِىَ لم يَرَها من قبل ، ويحملَ تجاراتٍ ومسافِرين من الصين ، وإلى الصّين ، فلا تكُون السّفن العرِبية ، ولاَ المسافِرون ، ولا التّجارُ ، بحاجةٍ إلى سُفنِ الصين ، بينَ الهِنْد والصين ، وتتواصَلُ المسافاتُ بالسُّفنِ العربية ، من سواحِلِ عمان ، والممالِكِ العربية ، فى افريقيّة

واليمن ، إلى الهندِ ، والصّين ، دونَ انقطاع . وقالَ له أبوه مُشْفِقا وفرحا :

ـ نحنُ ضيوفُ الرحمن ، كما تقولُ يابنى ، فى كلّ البحار . على بركَةِ الله رِحلتُك هذه ، وأنا معك ، لأرَى أهلَ الصين ، وموانئِ الصين ، لكنّ لى شَرْطا واحداً ياولَدى ، أن تستعين بنائِبِ رُبانٍ معك ، من بحارَةِ الصّين ذوِى الخبرةَ ، وسوف نرى عن قُرْب ، مدى خبرتَك مع بحْرٍ جدِيد .

السمكة العجيبة

نجحتْ رِحلة أحمدُ بنِ ماجد إلى الصّين ، ورأى فيها أحمدُ ، ومن معه ، أهوَالاً بحرية ، كان يتحدّث عنها ربابنةُ الهِند والصّين ، والعائدون من الصين . وعدَّها أحمدُ رحلةَ عمرِه الأولى ، فأخَذَ يجُوب بسفينتِه الموانِى على بحرِ الصينِ الجنوبىّ ، وبحرِ المِهْرَاج ، وجزائِرِهما .

ورأى أحمدُ فى ميناءِ خانْفو (كانتون) رجلاً صينيا ، يحملُ مغناطِيسا له شكلُ السّمكة ، يضعُه على لوْحٍ خشبىّ فوقَ الأرضِ ، فتتحرّك السمكة متجهةً برأْسِها إلى جهةِ الشّمال ،

وكلما أدارَ الصّينى اللوحَ بالسّمكة ، عادتِ السمكةُ لتُعدِّل موضعَها ، جهةَ الشمال . وقالَ الصينى لأحمَدَ بنِ ماجد :

ـ بهذا المغناطيس ، نسافِر ليلا بين البلاد ، فى أنحاءِ الصين ، فنعرف بجهةِ الشمال كلّ الجهات ، فى ظلامِ الليل ، حينَ تختفِى النجومُ وراءَ السحب .

وأحسّ أحمد بأنّه يلهث ، واشترى سمكَةَ المغناطيس من الصينىّ وأسماكاً مغناطِيسِيةً أخرى ، من متجرٍ صينِىّ فى الميناء ، وسارَع إلى أبيه فى مرسى الميناء ، وأرَاه سمكَةَ المغناطِيسِ العجِيبة ، صديقَة الشمالِ برأسِها ، وصديقةَ الجنوبِ بذيلِها ، أينما وضعَها . وقال أحمد لأبيه :

ـ الأرضُ هى الأرْض ، فى البّر والبحر . من الآن ، لن تتوقّفَ السفُنُ العربيّة ، وتلقى مراسِيها فى عَرْضِ البحر ، بسببٍ من ظلام الليل ، أو اخْتفاءِ النجوم .

فقال له ماجد :

ـ نعم يابنى . ذلك أمرٌ صحيح فيما أرَى . لكِنّنى أعجب : لماذَا لم يستخدِمْ ربابنةُ الصّين هذِهِ السمكَةَ المغناطِيسية فى أسفارِهم البحرية ؟

وفكر أحمد وقال :

ـ لاسبَب عندى أراهُ ، لإهمالهم منفعتها فى البحر ، سِوَى أمرٍ واحد هو : عدمُ وجودِ خطوط وأقسام لعروض الأرض ، حول هذِه السمكة ، وأحسَب أن بوسعِى عملَها ، على لوح السّمكة . وأضعُ هذا اللوح ، وعليه السمكة ، فى حُقّة محكمة ، بها ماء ، وأثبّت السمكةَ بمحورٍ فى اللوح ، فتتحرّك بِهِ على الماء .

عندئذٍ عانقَ ماجدُ ولدهَ أحمد ، قائلا له :

ـ بوركْتَ يابنى ، وبورِكَ عقلُك ، وبوركَتْ رحلتُنا هذه . فاجْعَل هذه السمكةَ سِرَّك كربّان ، فى ظلّ البحار ، فلا يعرِفُه أحدٌ سواك ، وسوَى الربابِنة العرَب .

الكتـــاب الأم

وعاد أحمد بسفينتهِ وأبيه ، عبْرَ الموانِى مجتازاً بحار الصين ، والهِند ، والعرَب ، إلى جُلفار .

كانتْ جُلفار ، مثلَ سائرِ بُلدانِ عمان ، الممتدةِ من الإمَارات العربيةِ المتحدة الآن إلى حضرَ مَوْتَ ، تعيشُ فى ظل

حُكْم الأئمّة الجلندِيّين الأباضيّين ، منذُ ثمانية قرون ، وكانت مدينةُ « نَزْوى » هِى عاصمةُ هؤلاءِ الأئمة . وحولَ عمان ، فى القرنِ الهجرىّ التاسع الميلادى الخامس عشر ، كانتْ فارِس ، والهندُ ، وأواسطُ آسيا ، ومعظمُ آسيا الصغرى ، خاضعةً لحكمِ امبراطورياتٍ مغولِيّة ثلاث ، وكان العالَمُ العربىُ خاضعاً لحكم بنى رسُول فى اليمن ، وحضر موت ، وكان المماليكُ البحريّة يحكمون مصرَ والشام والحجاز ، وكان الحفْصيّون فى تونس والجزائر ، والمَرينيّون فى المغرب .

كانت شواطىء عمان ، قد تعرضَت فى تاريخِها القريبِ والبعيد ، لغَزَوات الفاتحِين من الفُرْس ، وهِجْرات المهاجرين من الهنود ، والزنُوج ، والأحْبَاش ، فاختلطتْ بين أهلِها اللّغات ، فضعُفت اللغةُ العربية بينَ أهلِها حديثاً وكتابة ، وساد السّجْع المفْتَعَل فى كتابَاتِ النثر ، ونُظِمت علوم ذلك الزّمان ، الطبيعيةِ ، والاجتماعيةِ ، واللغويّة ، والدينية ، فى أراجيزَ شِعْرية .

وفاجأ أحمد أبَاه ذاتَ ليلة ، وُهما جالسان ، فى شرفةٍ بدارِهما فى جلفار ، بكتَابٍ قدّمه إليْه . فأخذَ ماجُد الكتابَ ، وقال له بعتاب ، وهو ينظرُ فى اللحظةِ نفسها إلى أمّه :

ـ أهذا هو ديوانُ أشعارِك الغزلية ، فى البحرِ ، وعرائسِ البحر ، وزُرقةِ البحرِ والسماء . وددت لو كتبت خبرتَك كربان فى مرشدٍ ملاحى هام ، لغيرِك من بحارَةِ الأرْض .

وابتسمَ أحمدُ صامتا . وفتَحَ ماجد الكتابَ ، وقرأ على غلافِه الداخِلىّ ، بدهشَة ، هذا العنوان : « الفوائدُ فى أصولِ علْمِ البحرِ والقَوَاعد » . فنظرَ إلى أمّ أحمد ، ثم إلى أحمد ، وقال :

ـ متى بدأت فى كتابةِ هذا الكتاب ؟

فقال أحمد :

ـ منذُ أربع سنوات . وقد راجعتُه وأتممت مراجعتَه ، ونحنُ عائِدانِ من الصّين .

سهرة مع كتاب

كان الكتابُ يحتوى على مقدمةٍ فى علمِ البحر ، ودعوةٍ للربابنة لدراستِه ، ثم على إحدَى عشرةَ فائدةً (فصلاً) ، عن ربابنةِ البحرِ المشهورين السابقين : محمدُ بن شاذَان ، وسهلُ ابنُ أبَان ، وليثُ بن كَهْلان ، وأنه هُو رابعهم ، وعن إعدادِ السفينةِ

قبْلَ الإبحار ، وعن واجباتِ الرّبّان والبحارةِ ، وعن الآلاتِ الملاحيةِ علَى السفينة ، وعن مطالعِ النجومِ ومغاربِها وأوقاتِها ، وعن إشاراتِ وعلاماتِ قُربِ الشواطىء فى قاعِ البحرِ وحيواناتِه وأسماكِه ، وعنِ المراجعِ الفنيةِ فى الجغرافيَا الوصفية والفلكيةِ والرياضيةِ التى يجدُرُ بالربابنةِ قراءتها . وعن كلّ شيءٍ فى البرّ والبحرِ ، أو علَى السفينة ، تتحتّمُ معرفته على الربّان .

وفى الصباح ، قال ماجدٌ لابنِه أحمد :

– سهرتُ ليلتِي مع كتابك . أخيرا وضعتَ لنفسِك ولمن بعدَك مرشدا فى الملاحةِ ، لاتجاوِزُ صفحاتُه المائتيْن . وعليكَ معُاودةُ تنقيحِه (تهذيبه) وتطويره بالإضافةِ إليه ، خلال أسفارِك المقبلة . هذا هُوَ ، ياأحمد ، كتابُك الأُمّ الذى سيُناطح كلّ مايأتِى بعدَه من كتبك ، أو كُتبِ سِوَاك ، فى علومِ البحرِ وفنونه .

وكان ابنُ ماجدِ قد بدأ كتابَه الصغِيرَ الحجم ، وعمْرُه اثنتانِ وأربعُون سنة ، وظل فى تدوينه ومراجعتِه بقية عمره ، فقدْ أعادَ كتابته مرةً وعمره خمس وأربعون سنة ، ثم أعادَ كتابته مرةً ثانية وأخيرة ، وعمرُه سبعٌ وخمْسون سنة .

وقال له أبوه :

ـ هذا الكتابُ خير من كتابِك السابق « حاوية الاختصار » . الحاويةُ أُرجُوزة شعرية ، صعْبَةُ المنَال بنظْمِها . أما كتابُك « الفوائد » ، فهو جامِعٌ للفوائد حقًّا ، وبلغَةٍ يعرفها كلُّ الربابنة ، والبحّارةِ ، والتجارِ ، فى كلّ العصور والبُلدان .

الطائر الأزرق

وتعدّدت أسفارُ أحمد بنِ ماجد وحدَه ، فقد بلَغ أبُوه من تقدّم العمر ، وضعْفِ البدَن ، حداً جعلَه يبقَى مع أمِّ أحمد فى جُلفار . ينظرُ إلى مياهِ الخليجِ مودّعا ، ومنتظراً ، ومستقبِلاً ولَده أحمد ، كلّما سافَر ، أو غابَ ، أوعادِ .

كانت تتوفر فى أحمدُ بن ماجد صفاتُ الربانِ الإنسانية والخلقية ، وكان يعرف فيضًا غزيراً من الفنُونِ الملاحيّة . وعلم الفلك ، والرياضة ، يعرف بها جميعا طريقه فى البحر ، فى النهارِ وفى اللّيل ، وبالقرب من السواحل ، وفى أعالِى البحار ، ويعرِفُ أن كلّ الأخطاءِ فى العلوم ، وعلى البرّ ، تُغتفَر إلا خطأَ الربان . وكانَ ماجدُ يعرِفُ كل ذلك عن ولده ، ويعرِفُ أنه ليسَ ربّانا

قليلَ الخبرة ، وأنه ربّانٌ حاذِقُ وماهِر ، بلْ وربّانٌ خبيرٌ لايخْفى عليهِ شيءٌ من مُشكِلات الإبحار والبِحَار . ومع ذلِك فقلْبُ الأبِ ، بين جنبيْه ، لايفتأً قلِقا ، كلما باعدتْ بيْنهُ وبيَن ولدِه الأسفار .

كان أحمدُ بنُ ماجد يرَى البحارَ والبُرور ، والسواحَل والشطآن والجُزُر والخُلجان ، وكأنهُ يراهَا لأولِ مرة ، هو الذى رآها من قبلُ مراتٍ ومرات ، إلى درجةِ أنه كان يتعرّف عليها وهو فى عرْضِ البحر ، ولم ترها بعدُ عيناه ، يعرِفها بروَائحِ الرياح ، وألوانِ المياه ، وبنوعِ الطّين ، وأشكال الصخُور ، وشِعابِ المُرجان ، والطحالِبِ ، والأسْماك ، والحيواناتِ البحرية ، وقناديِل البحِر المضيئَة التى يقرَأُ فى الليلِ المظلم ، على ضوْئِها ، صفحاتٍ من كتّاب . ويعرِفُها بقِمَم الجبال والرؤُوس البارزة ، وتعاريج الشطآن ، ومطالِع النجُوم ومغارِبها ، وحركة الرياحِ والدوّاماتِ والفوّارتِ البحرية ، ويحدّد بكل مّايراه مسافاتِ البعدِ أو القُرب ، قبلَ الوصُول إلى الشُّطآن . رأَى مرةً ، وهو صغِير ، طائر « أمّ الصِّنانى » وهو فى عرضِ البحر ، ولاشاطِئَ يُرى بعْدُ ، كانَ طائراً أزرَق ، ذا بطْن بيضاءَ ،

تكدِّرها الزُّرقة ، فصَاح :

ـ نحن نقترب من جزيرةِ سُقُطْرى ، وبينَنا وبينَها مسيرةُ نهار .

وعجِب أبوه آنذاكَ ، فسأله :

ـ هذِهِ هى المرّة الثانية التى نُقبل فيها معاً من الجنوبِ نحو هذِه الجزيرة ، فكيف عرفْت ؟

فقالَ أحمد بهدُوءٍ مشيراً بيدِه إلى سِرْب من طيورِ أمّ الصّنانى :

ـ بهذِه الطيور . رأيتُها من قبل ، فى هذا المكان ، لأول مرة ، ونحنُ على مسافةِ نهار .

فقال له أبوه :

ـ صدقْت . ستكونُ حقّا أسَدَ البحار .

لكن أبَاه نسِىَ ماقالَه ، ولذلك عجِبَ لوصفِه نفسَه بأسدِ البحار ، فى كتِابه « حاوِيةُ الاختصار » .

قدوم الغزاة

وجاءَ يوم ، دخلَ ابن ماجد فيهِ بسفينته ، وملاحِيه ، إلى ميناءِ « ماليندِى » بكامْبيا (كينيا الآن) ، وكانتْ بين حاكِمها وحاكمِ مدينةِ « مُمْبَسَّة » (فى الجنوبِ منها) خصومةٌ قديمة ، ومنافَسة على السّلطان ، فى الساحِل الزّنجى ، الممتدّ من الصومال إلى موزمبيق ، ورأَى أحمد سفينتيْن بحريّتين حربيتين ، تحملاِن أعلامًا افرنجية ، وقد ألقَتا بمراسيهما بعيداً عن الميناء ، والقوارِبُ الافرنجيةُ رائحةٌ وغادِيَةٌ ، بين هاتين السفينتين ومدينةِ ماليندى .

وسألَ أحمدُ بن ماجدٍ ، قائلا :

ـ لمنْ هذه المراكب ؟

فقِيل له :

ـ هذه سفنُ البرتقال (البرتغال) .

وعرف أحمد من بحارَةِ الميناء ، أن هذِهِ السفن تأتي للمرّة الأولى ، إلى هذهِ الناحية ، مجتازةً مياهَ بحرِ الظلمات فى الساحِلِ الغربىّ لافريقية ، ومارةً برأسِ الرجاءِ الصالح ، ولايعرِفُ أحدُ وجهتَها بعد ، وأن سُفُنًا قبلَها للبرتُقالِ ، قد جاءَتْ قبلَ عشرِ

سنوات ، لكنّها دخلت فى رأس العواصِف (رأس الرجاء الصالح) ، وغرِق الكثيرُ منها فى العاصِفة ، فعادَت بقيتُها إلى بلادِها .

رعب الحاكم

وسارَع ابن ماجد إلى صديقهِ حاكِم مالِينْدِى العربى ، فوَجده فى محنة يُرثَى لها ، فقائدُ هذهِ السُّفُنِ البرتغاليةِ أميرُ بحر معه سفينتان حربِيّتان من سُفُنِ « الغُراب » (الكِرافِل الآن) ،

وأنّه قابَلَه بترحَابٍ ، وصارا صديقيْن ، وتبادَلاَ الهَدَايا ، وأنّه وثِق به ، وزارَه فى مركبِه هو وأخُوه ، فأخَذ يسأُله عن المسافة إلى الهندِ ، فأخبره بأنها سُتّمائة فرسَخ ، فذكَر له القائدُ الغريب أنهُ ينتظر موسِمَ الإبحار إلى الهند .

وقال حاكم مالِينْدِى لابِن ماجِد :

ـ له معنا فى عَرْض البحر ، إلى الآن ، أكثَر من شهْر ، وكان يتردّد علَىّ ولاأتردّد عليه ، ويطلبُ منّى مُلحّا ربّانا ماهراً ، عارفاً بالطريقِ إلى الهنْد ، ولا أجيبُه إلى طلَبه .

فقال ابن ماجد باستنكار :

ـ الطريقُ إلى الهند ؟ لماذا ؟ بضائِعهُم تحمَلُ من بلادهم ، من البنْدُقِية ، وجِنوه ، وجزرُ بحرِ الروم (المتوسط) إلى مِصْر ، ونحملها فى بحرِ القَلْزم من مصر ، إلى الهنْد ، والصّين ، ونرسِل إليْهم عبرَ مصر ، وبحرِ الروم ، كلّ بضائِع الشرْق ، لماذا ؟ أخذُوا منّا الأندلُس (اسبانيا والبرتغال) فماذا يريدُون بقدومِهم ومراكِبهم ؟ الهِنْد ؟! وماذا بعْدَ الهند ، سوَى الطريقِ إلَى الهِنْد ؟!

فقال حاكمُ مالِيندِى لابنِ ماجد :

ـ أعرفُ ذلك كلّه ياأسَد البحار . لم تُفلح معِى تلميحَاتُه بالانحيازِ إلى حاكِمِ مُمبسّه ، فلجأ إلى حيلةٍ قذِرة : زارَه دونَ علمى وإذْنِى ، قريبٌ من أهلِ بيْتى ، أثِق به ، وأعتمِدُ عليه ، فاحتجزَه لديه رهينة ، إلى أنْ أبعثَ إليهِ بربانٍ قدِير ، يسألُه عن الطريقِ إلى الهندِ ، وكيفَ يصِلُ إلَيها سالِماً .

وحزِن ابن ماجد لحزْنِ صديقهِ حاكمِ مالیندی ، فقال له :

ـ سأذهَب إليه فى سفينتِه ، وأدُلّه على طريقٍ إلى الهنْدِ ، أرجُو ألا يعودَ منه ، ولايصِلَ إليها قطّ .

فقالَ له حاكم ماليندِى شاكراً وممتَنا :

ـ كن معه على حذر . إنه رجلٌ متوسّط الذكاء والتعليم ، ولكنه قوِىّ العزْم ، شديدُ المكرِ والحزْم . وقد هلكَت لهُ سفينتان فى رأسِ العواصف ، فلم يتردّد فى القُدوم إلى هذَا الساحلِ بالسفينتينْ الأخريَيْن . واسمُه فيما قاله لى : فاسكُودِى جَاما . وخُذْ معَك مترجمِى الخَاص ، فهو يعرف لغةَ الفِرنجة . وتذكرْ . لاأريدُ أن أفقدَكَ ، أو أفقُدَ قريبِى ، فالبرتقاليّون مسلحُون ، ولا قِبَلَ لنا بحربهم ، إذا خرجْنا إلَيْهم .

الخدعة الكبرى

ولقِىَ ابن ماجد الربّانَ البرتغالِىّ فى قُمرَته ، وأكرمَه أميرُ البحر ، وأجلَسه معه ، وكان ثالثُهما هو قريبُ حاكم مالیندی ، ورابعهم هو المترجم المَاليندي .

وقال فاسكودى جاما لابن ماجد :

ـ أرِنا ماعندَك ، ونرِيكَ ماعندنا ، من أدَوات البَحْر .

فقال له ابن ماجد :

ـ أطِلق أولاً سراحَ هذا الرجل . ثم نجلِسُ ليلتَنا نتحدّثُ ، أعرِفُ ماعندك ، وتعرِفُ ماعندى ، وأذكرُ لك ماينقصُك فى سَفَرِك إلى الهِند .

وأمر فاسكُودى جاما نائبه ، فأطلقَ سراحَ الرهينةِ الأسير ، وحملَه القارِبُ إلى الشاطىء . وجلسَ الاثنانِ يتحدثَان ، ونثَر كِلاهما أدواتِه البحريةَ للآخر ، وبُهر « فاسكو » بتقدّمِ أدواتِ الملاحَةِ العربية ، ودقّة حساباتِها ، وكان يعرِفُ الكثير منها من عرِب المغرب ، وعربِ الأندلس ، لكن معرفَتهم كانت

تقفُ قاصِرة دوَن معارفِ هذا الربانِ العُمانِىّ الماهِر . وقال فاسكودى جاما لابن ماجد :

– لم تُرِني السمكةَ المغناطِيسية التى يتحدّث بحارةُ العرب عن حيازتِك لها ، واحتفاظِك بسرها .

لم يكن ابن ماجد ممن يحتفظون لأنفسهم بسرٍّ ملاحى ، فالربَابنةُ كلّهم فى بحارِ المحيطِ الهندى يعرفُونها بفضْله . وأطلَع ابنُ ماجد أميرَ البحر البرتغالِىّ على سمكتِه المغناطيسية فى حُقّتها ، والقوسِ المدرّج على لوحها ، يشيرُ إلى مواقِع النجوم وأسمائِها ، وخطوطِ العرْض عليها . وبُهِر فاسكو دى جاما ، واتخذَ قرارَه . حدّث نفَسه : « هذا الرجُل غايتِى » وأومأ إلى نائبه ، فأُغلقتْ القُمرة ، دونَ أن يشعُر ابنُ ماجد ، وشرِب من يدِ فاسكُو دى جاما شرابا ، لاطعْم لهُ من حلاوَةٍ أو مرارة ، وثقُلت عيناهُ بالنوم ، فأرْقَدَه فاسكو دى جاما على سريرِه ، فى قُمْرَتِه .

الأسد الأسير

وفى الصباح ، وجدَ ابن ماجد نفسِه ، وقد خرَج إلى ظِهرِ السفينة ، ظانّا أنه سيعودُ إلى مالِيندى ، محاطاً بالحُرّاسِ

المدجّجين بالسلاح ، ورأى الأشرِعة مُنتفِخةً بالهواء ، وشاطئ مالينِدى قد غاب كلّه عن البصَر . وأدرك ابن ماجد أنه الآنَ أسيرٌ لفاسكو دِى جاما ، ومرشدُه إلى طريق الهِند ، شاءَ أو أبَى .

واقتربَ منه أميرُ البحر البرتغالى قائلاً :

ـ الآنَ أنتَ مُرشِدِى ، وربّانُ سفينتى . ولسوفَ أصِلُ إلى الهِند ، بأدَوَاتِك هذه وسمكتك ، وبكَ أوبدونِك ، ولاسبيل لكَ معى للهرَب ، ولا لطَلَبَ الموتِ بيدِك ، أو بالغرَقِ فى البحر . سأعوّضُك بمالٍ وفير ، يعدِل ، أيّها الربّان العجوز الذى يحتاجُ إلى الراحةَ ، كلَّ ماكسِبْته ، وكلّ مالم تكسبه فى حياتِك . وإن هلكْنا هلكْناً معا ، وإنْ نجوْنا نجْوناً معا .

واستسلَم ابنُ ماجد للقضَاء . وكانتِ السفينتانِ البرتغاليتان ، قد أبحرَتا من مالينِدى فى اليومِ الرابعِ والعشرينَ من شهرِ إبريل ، عامَ ألفٍ وأربعمائةٍ وثمانيةٍ وتسعين ، وقد بلغ أحمدُ بن ماجد ، أسد البحار الأسير ، من العمر ، نحواً من خمسٍ وستينَ سنة ، وكان أبوه ماجدُ قد ودّع الدنيا قبل سنين ، فلم يعِشْ ليرى عجْزَ ولده أسد البحار ، مؤلفَ « حاويةِ

الاختصار » ، و « الفوائِد » وأراجيز شعريةٍ أخرى ، فى علْمِ البحر .

ووصلتْ سفنُ البرتُغال فى خطٍّ مستقيم كالسّهم ، إلى ميناءِ مالِيندى بعد اثنين وعشرين يوما ، واستولى « فاسكو » عندئذ ، على أدوات ابن ماجد الملاحية ومخطوطاته البحرية ، ولم يُطلِق سَرَاحه إلا وهو يرْحَل عن الهِند بسفينتيه ، المحملتينْ بالتوابل ، أنزلَه إلى قاربٍ منَحه له بعد مغادَرَتِه لمرسَى الميناء ، ووضعَ معه فى القارِب المال الذى كانَ قد وَعَده به من قبل .

ســنوات الحــزن

ولجأ ابن ماجد إلى صديقٍ له مفتشِ جمارِك مسلمٍ ، اسمه « أبوسعيد » يبثّه همه ، وانتظَر عنده حزيناً سفينةً تُبْحِر به بعدَ حين إلى مالیندی ، حيثُ ترَك سفينتَه ورجالَه . وأخذَ يفكّر حائراً : هل غدَر حاكمُ مالِيندى به ، فداءً لقريبِه الأسِير ، وتفادياً لحربٍ لاقبلَ لهُ بها ، أمْ أن فاسكو دى جاما قد غَدَر بهماَ معا ؟! و لم تعرِفْ عينَا ابنِ ماجدِ منذُ تلْك الليلة هناء النوم ، وتوقّع شُرورَ الدّنيا بأسرِها ، لسواحلِ الهند ، والزّنْج ،

والعرب . لكنّ ابن ماجد لم يتوقّف قطُّ عن الإبحار ، وتأليف الأراجيز الشعرية ، وكانَ البرتغاليّون قد عرفوا الطريقَ إلى الهند ، وإلَى الثراءِ من التوابل .

وخلالَ الأسفار ، كانت الأخبارُ تصلُ إلى ابن ماجد ، بعدَ عامين اثنين من أسْرِ البرتغاليين له . فالبُرتغالِيون ، يُؤمِّنون الطريقَ إلى الهِند ، ويحتلّون جزيرةَ القَمَر (مدغشقر) ، ومُوزمبيق ، وساحِلَى الزّنْج ، وسُفالة ، بما وراءَهم من إمدادات ، وبما معَهم من بنادقِ ، ومدافِع ، وبارود ، لاعهدَ للأفارقةِ والعربِ بها ، والبرتغاليّون يعودُون لقاليقوط ، ويضربُون مُقاومةَ الهنودِ والعرَب لهم بالمدافِع ، وفاسْكودِى جاما يعيِّنُ نفسَه حاكِماً عاماً للهند ، ويحرِقُ مراكبَ المسلمين ، ويستولِى على مافِيها من توابِل وبضائع ، والبرتغالِيّون يغلِقون مدخلَ بحرِ القلزم (باب المندب بالبحر الأحمر) ويستولُون على مناطِق عدن ، وسواحِل عمان وهُرْموز ، ويغلِقون مضيقَ هرمز فى وجهِ الملاحة العربيةِ والهندّية معا .

عندئذٍ ، وهَن عزمُ أسدِ البحار ، فلاذَ بالميناءِ المهجورِ لجُلفار . يكتب فيما بقِى له من سنين العمر آخرَ كُتُبه فى عِلم

البحر ، وهو « الأرجُوزة المخمسّة » .

وآوى ابنُ ماجد ذاتَ ليلةٍ إلى فراشِه ، يرنُو إلى الميناءِ المهجُور ، والسفنِ الحبيسَةِ الخالية ، حتى من الأشرعَةِ ، عبْرَ نافذةٍ مفتوحَة ، والقمر مايزالُ يبزُغ كعهدِه فى كلّ ليلة ، وأطبَق ابنُ ماجد ، أسد البحار ، جفْنَيْه إلى الأبد ، فلا هُوَ ، ولا العَربُ ، ولا الزّنْجُ ، بقادِرين على الوقُوفِ فى وجهِ الطوفان ، الوافد من بلادِ الجليد ، والعواصِف ، ووراءَ بحرِ الروم ، مزوّدا بالمدافع ، والبنادق ، والبارود .

●

فى الربْع الأول ، من القرنِ العشرين ، نشَرَ المستشرِقُ الفرنْسِى « جبرييل فران » مخطوطًا عربياً قديما ، يضمّ تسعَة عشَر كتاباً فى الملاَحةِ البحريةِ الفلكية لابنِ ماجدِ الملاحِ العربى ، من بينِ كتبه التى جاوزَت الثلاثِين ، ولم يُعثر على سائرِها بعد . وتُعد هّذهِ الكتب أهمَّ وثيقةٍ ، فى كُلّ اللغات ، فى الجغرافيا البحريةِ الفلكية قبلَ بدءِ عصرِ النهضةِ الأوربيّةِ الحديثة . وفى هذا المخطوط ، تحدّث ابن ماجد عن الملاحةِ فى البحارِ الجنوبية ، بالمحيطِ الهندى ، والملاحةِ فى البحرِ الأحمر ، وذكرَ لأولِ مرة

اسمَ علمٍ جديد ، هو : « علمُ البحر » المعروفِ لنا الآنَ باسمِ « الاقيا نوجرافيا » أو « الاقيانولوجيا » . وقد ألقَى هذا المخطوطُ الضوءَ على مقدارِ تقدّم العرب ، فى فنونِ البحر ، والملاحةِ البحرية ، عبر الليلِ والنهار والفصولِ الأربعة ، وعلى مقدارِ تأثّر البرتغاليّين والأوربيين بالتعاليم والتقاليدِ البحريةِ العربيةِ فى البحار عامة ، وفى المحيطِ الهندىّ خاصة . والمصطلحاتُ التى وردَت فى هذه الكتب ، هى ، فى حدّ ذاتها ، ثروةٌ كُبرى للغةِ العربية ، على طريقِ تعريب العلومِ ، ومصطلحاتِ العلومِ ، فى العصرِ الحديث .

●

وفى نهاية العقد الثانى من القرن العشرين ، عثُر المستشرق الرّوسى : « كراتشكوفسكى » على ثلاث أراجيز شعرية أخرَى لابنِ ماجد ، فقامَ بالتعليقِ عليها ونشرهُا مستشرق روسِى آخر ، هو « تيوذُورشومُوفِسكى » .

كان أمراءُ البحرِ الأتْراك ، الذين ساهَموا ، فى منتصَفِ القرنِ الميلادىّ السادسِ عشر ، فى طردِ البرتغاليين من الموانى العربية ، شديدِى العنايةِ بكتاباتِ ابنِ ماجدِ البحرية ، مثل عناية

المستشرقين الأوربيِّينَ بها ، من الروسِيّين ، والسويسريّين ، والألمان ، والفرنسيّين ، والهُولنديين .

وفى الوطنِ العربى ، توالَتْ كِتاباتُ الكُتّابِ العربِ عن ابنِ ماجدٍ الملاح العربى ، فى المجلاّتِ العربية ، فى دِمشْق ، والقاهرة ، والرّياض ، وجُدّة ، والموصِل ، وبغداد ، والقاهرة ، ولا نكادُ نفتح مرجعاً عربيا أو أجنبيا ، من المراجع الجغرافِية البحرية ، أو من كُتُب العجائِب والرحلاتِ البحرية ، إلا ونجد فيه ذكراً للملاحينَ العرب ، وفى مقدمتِهم ابن ماجدٍ الملاح .

وفى عامِ ألفٍ وتسعمائةٍ وستةٍ وستين ، ألقَى الدكتورُ « أنور عبد العليمّ » بحثاً عن « ابنِ ماجدٍ وأعمالِه » فى المؤتمرِ الدولى الأول لتاريخ علوم البحار ، الذى انعقَدَ بإمَارةِ « مُوناكو » . وكانَ قد نُشِر له ، قبل شهور ، بالقاهرة كتابٌ عن « ابنِ ماجد الملاح » صدر فى سلسلة « أعلام العرب » .

●

ينتمِى شهابُ الدين أحمد بن ماجد ، العُمانى المولِد والنّشْأة ، فى ميناءِ جُلفار (رأس الخيمة بالإمارات الآن) ، إلى بنِى تمِيم ، فى بلدة « ثَادِق » بنجد ، وهى إحدَى قُرى إقليم

« المحمَل » ، شمالى غربىّ الرياض ، وماتزال عائلته تعرَف فى قرية « ثادِق » بـ « أولاَد النّواخذ » (الربابنة) . وذلِك ماحقّقه الكاتِبان السعوديان : الشيخ « حَمَد الجاسر » ، والأديب « عبدُ اللهِ الماجِد » .

فى عامِ ثمانمائة وثمانية وثلاثين هجرية ، ألف وأربعمائة وأربعة وثلاثين ميلادية ، كان ميلادُ « ابنِ ماجد » أسد البحارِ الجنوبية . وفى عام تسعمائة وثلاثة عشر هجرية ، تقريبا ، ألف وخمسمائة وسبعة ميلادية ، كانت وفاتُه من عمرٍ يناهِز سبعين سنة .

●

ولسوفَ تحين ذكرى ميلاد ابن ماجد أو وفاته ، فى عامٍ من أعوام القرن الحادى والعشرين . وهى الذكرَى التى ينبغِى لنا نحن العربَ الاحتفالَ بها ، فى مؤتمرٍ دولى ثقافى ، يُعقد إحياءً لذكرَى أسدِ البحار ، فى مدينةِ رأسِ الخيمة بالإمارات العربية المتحدة ، وتُلقى فى هذا المؤتمر الدراساتُ والأبحاث ، وتُنشرَ موسوعةٌ ضخْمةٌ لتراثِه ، ويُجمع فى مجلّدٍ كلُّ ماكتبَه عنْه الأقدمُون والمحدَثون ، من العرَب والأورِبّيين ، تحية لذكرى بحار

عربى خالد ، اكتشَفَ علمَ البحر ، وساهم وجابَ أرجاءَ المحيطِ الهندى ، وعبَّد طرقَه البحرية لربابنَة الدنيا ، وحنُوًّا من دول الخليج العربى ، وعمان ، والسّعودية ، على ذكرَى بحار عربى خليجى ، كان بحارةُ جزُر المالديف إلى أوائلِ القرنِ الماضى ، وطوالَ أربعمائةِ عام ، يقرأون لروحِه سورَة الفاتحة ، كلّما خرجُوا إلى البحرِ مسافِرين ، وكلما عادُوا إلى بيوتهم سالمين .

ومن يذهبُ إلى مالِيندى اليوم بكينيا ، سيرَى بها نصباً تَذكاريا أقامَه البرتغاليون فى مالِيندى ، اعترافاً بفضْلِ ابنِ ماجدٍ على البحرِية البرتغالِية والأوربية ، فى بحارِ المحيطِ الهندى .

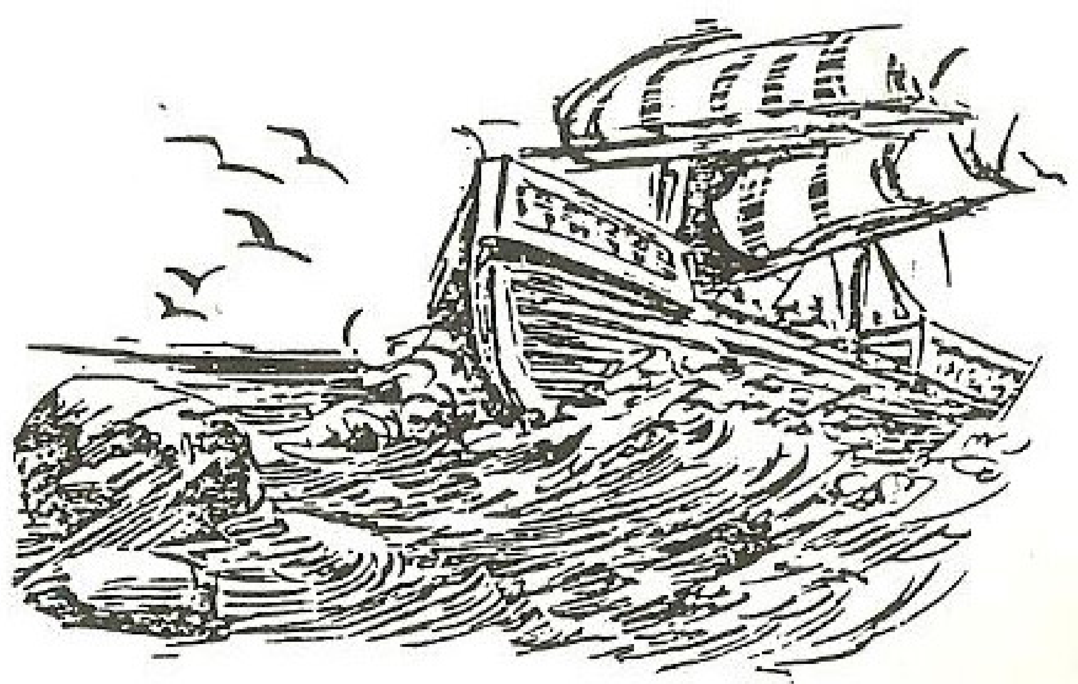

رقم الإيداع بدار الكتب

١٩٨٩/٨٢٠٠

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر